

## مقدمة

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، أحمدته تعالى كما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به، وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه، وأستغفره استغفار من يُقَرُّ بعبوديته، ويعلم أنه لا يغفر ذنبه إلا هو.

وصلى الله على نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وصلَّى عليه في الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحدٍ من خلقه<sup>(1)</sup>.  
أما بعد؛

فربما كانت أهم الأسئلة التي ينبغي أن يجيب عليها هذا التقديم هي: ماذا؟ ولماذا؟

سؤال المحتوى: ماذا يقول هذا الكتاب، أو عن ماذا يتحدث؟

وسؤال الجدوى: لماذا هذا الكتاب، أو لماذا كُتِبَ؟

أما عن سؤال المحتوى...

فهذا الكتاب محاولة لتسليط الضوء على إحدى صور النقد الفقهي وأهمها، وهو الذي سعى لإصلاح العمل الفقهي، وتخليصه مما لحق به من إشكالات وضعف بتقادم الزمان والتباعد عن زمن الوحي، وزمن الممارسة الفقهية الكاملة في عهد الصحابة.

---

(1) هذه العبارات في الثناء والصلاة مقتبسة من مقدمة الإمام الشافعي لكتابه «الرسالة».

وهذا العمل النقدي - كما سترى - كان متصلًا متشاركًا في مقولاته، متنوعًا في موضوعاته، مستمرًا إلى عهد متأخر، بحيث كَوَّن في مَجْموعِهِ «حركة نقدية» يمكن تمييزها بوضوح في التاريخ الفقهي، وإن لم يكن أعلام هذه الحركة غالبًا على قصد ووعي باتصال أعمالهم وتكاملها وتنوعها.

وقد اشتمل هذا الرصد والتأريخ على ذكرٍ مختصرٍ لأنواع النقد الفقهي، وصورة النقد المقصودة والمرصودة في البحث، ثم تعريف مختصر بأهم أعلام هذا النقد ومحطاته.

ثم الجزء الأكبر والأكثر تفصيلاً يتعلق بمحتوى وموضوعات ومقولات هذا النقد، وهي على الإجمال ثماني موضوعات (التعصب المذهبي - ضعف النقد الحديثي - الحيل الفقهية - إهمال استعمال المقاصد - إقرار البدع - صورة التصنيف الفقهي... الفقه التقديري، ولغة الفقه - إهمال الفقه الباطن - الفتوى بالتشهي).

ما تقدم ذكره هو موضوع الباب الثاني، الذي هو الباب الأكبر، والمقصود الأول من الكتاب، حول أهم أعلام الحركة النقدية ومحطاتها ومقولاتها.

لكن حتى يمكن الوصول إلى درجة جيدة من الإدراك والتصور لسبب ظهور هذه الحركة، والمحيط التاريخي والفقهي لهؤلاء الأعلام وهذه المقولات كان لا بُدَّ أن يسبق التأريخ للنقد الفقهي، سردٌ مختصر لأهم المحطات التي مرَّ بها الفقه، وصورة الصنعة الفقهية في هذه المحطات، وأهم نقاط والقوة والضعف في الممارسة الفقهية أثناء هذه الرحلة.

وهذا هو موضوع الباب الأول من الكتاب، تاريخ الاجتهاد الفقهي، بداية من عصر الصحابة، العصر المعيارى، أو عصر الممارسة الفقهية الكاملة، انتهاءً إلى القرن والتاسع وما بعده، حيث ترسخت الإشكالات الفقهية، وهو الوقت الذي شهد الفصول الأخيرة من العمل النقدي المرصود.

أما عن سؤال الجدوى...

وهو السؤال الذي يشترك في البحث عن إجابته الكاتب والقارئ، فقد ألحَّ هذا

السؤال بنفسه كثيراً قبل إخراج الكتاب، ما هي الغايات المقصودة منه، والمعنى الجامع الذي يمكن أن تسهم فيه مباحث هذا الكتاب وموضوعاته؟

1- كانت الإجابة الحاضرة القريبة التي في تناول الذهن هي أنه يسهم في تغذية العقل الفقهي بما قد ينفعه ويدعمه في تناوله لبعض القضايا الفقهية الكبرى التي تعرّض لها الكتاب، التي هي من مفترقات الطريق ومكامن الخلاف ومولدات الحيرة في العمل الفقهي.

وكذلك ينفعه ويدعمه في تمييز الأصيل والدخيل في العمل الفقهي، وتمييز أهم الإشكالات التي أصابته، وتسببت في ضعف مسيرته وتغير صورته، والتعرف على ملامح الاتجاه الصاعد والعمل الفقهي الرشيد، من خلال مقولات الحركة النقدية.

ولا شك أن الإسهام في تدعيم العقل الفقهي عملت على درجة متقدمة من الأهمية؛ لأن الحقل الفقهي ليس مجرد أحد فروع العلم الشرعي واختصاصاته، بل العمل في هذا الحقل ينتظر منه في نهاية طريقه أن يوصل صاحبه إلى امتلاك ميزانٍ أو بوصلة يلجأ لها المسلمون في ضبط أمورهم الكبرى.

أهم هذه الأمور هو رسم الطريق الصحيح لعبادة الله تعالى، و«الاحتراز من الخطأ في القيام بالعبودية»<sup>(1)</sup>، كذلك النموذج هذا العلم هو الذي يضبط تفصيلات وملامح الأخلاقي والسلوكي الذي يدير به المسلمون معاملاتهم وأنكحتهم وسلمهم وحربهم، وقضائهم وفصل خصوماتهم.

فأصول المعاملة مع الله تعالى، ثم مع الخلق بأنواعهم في الصلة: كالقربة والنسب والتجارة والجيرة، وفي الدين: المسلم والكافر، وفي السياسة: الحاكم والمحكوم، وفي القضاء: الخصم والشاهد والقاضي، في هذا وغيره يختص الفقيه بتحديد صورة المعاملات، وترسيم حدودها، ووضع ضوابطها.

وهذه يمكن أن نسميها الوظائف الواعية للفقيه، وهي الظاهرة المدركة في عمل

---

(1) «حاشية الروض المربع» عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (8/1).

الفقه، لكن لعلم الفقه وظائف أخرى ليست بعيدة في خطورتها وأهميتها عن هذه، لكنها وظائف ليست ظاهرة أو مدركة لبعض الناظرين، أو حتى لبعض المشتغلين بهذا العلم، من أهم هذه الوظائف هي وظيفة التجانس الفكري والثقافي بين المسلمين، فمن اللغات العابرة للحدود السياسية، بل وحواجز اللغة والقومية والثقافة هي لغة الفقه، فاتصال المسلمين بالفقه، واتصال الفقه بهم، وبتفصيلات حياتهم لا يختص ببلد أو قومية أو ثقافة، وهو ما يجعله من أهم دعائم التقارب بينهم، ولذا فمهما يبلغ ما بين المسلمين من التمزق السياسي والتنوع العرقي، دائماً تبقى هناك لغات تواصل وأبواب اتصال بينهم، يمكنها أن تمهد الطريق في أي وقت أرادوا للوحدة السياسية والدينية، ومن أهمها التجانس الأخلاقي والفكري الذي يسهم فيه الفقه بالنصيب الأكبر<sup>(1)</sup>.

وأخيراً من الميادين التي يمكننا أن نرى فيها الفقه والفقيه هو ميدان الحياة الفكرية، فهذا العلم طالما كان -قبل التحديث الغربي والعصر الحديث- من أكثر العلوم التي ينتظم فيها الدارسون، كما أنه من أكثر العلوم اتصالاً بالوحي الإلهي والنظر فيه والاستنباط منه، لذلك طالما كان هناك ارتباط وتناسب بين ازدهار علم الفقه، وبين ازدهار الحياة العقلية والفكرية للمسلمين، بسبب ما يتطلبه البحث الفقهي الصحيح من جهدٍ عقليٍّ، وبسبب ما يشتمل عليه من اتصال بالوحي، ومن السهل أن نرد نشأة كثير من العلوم والاختصاصات إلى خدمة هذا العلم، ولعل هذا هو أحد الحكم الإلهية في جعل الوصول إلى معرفة كثيرٍ من الأحكام العملية يتوقف على اجتهادٍ، ويقع فيه اختلاف وتفاوت في النظر، وأحد معاني الرحمة في اختلاف الأمة<sup>(2)</sup>.

---

(1) وما في المجامع الفقهية من التعاون والتلاقي بالرغم من اختلاف البلدان والثقافات يدل على قدرة الفقه على تجاوز الاختلافات القومية والعرقية، ولو أفسح الساسة طرقاً للفقه والفقيه أن يوجد في مواقعه الاجتماعية والفكرية والقضائية، وكان الفقيه على استعداد كافٍ لذلك، لأمكن له أن يكون من أهم أسس نهضة جديدة، دينية وسياسية.

(2) وروي «اختلاف صحابتي لكم رحمة» ولم يصح في مبناه، وإن احتمل أوجها من الصحة في معناه، يأتي بعض ذلك.

لذا من تعرض في بحثه للفقه الإسلامي وتاريخه لا بُدَّ أنه سيلاحظ وقد يصرح بهذا الموضوع الذي تبوأه الفقه في الحياة الإسلامية، يقول الحجوي الثعالبي: «الأمة الإسلامية لا حياة لها بدون الفقه، ولا جامعة تجمعها سوى رابطة الفقه وعقيدة الإسلام... فهي دائمة بدوام الفقه، ومضمحلة باضمحلاله»<sup>(1)</sup>.

وقد أصاب شاخت -رغم عجمته- في وصف هذه المنزلة المركزية لعلم الفقه في الفكر والسلوك، فعبر عن ذلك بقوله: «إن الفقه الإسلامي هو خلاصة الفكر الإسلامي، وأهم نموذج تتجلى من خلاله طريقة حياة المسلمين، وهو جوهر الإسلام ولبه»<sup>(2)</sup>.

ويقول أحد المستشرقين عن دور الفقه في التجانس الثقافي: «فقد كان الفقه بلا منازع، وربما أكثر من اللغة العربية... واحدا من أكبر عوامل تماسك الأمة وتحديد خصوصيتها»<sup>(3)</sup>.

وقال آخر: «قلما تغلغل الشرع في حياة أمة وفي فكرها هذا التغلغل العميق مثلما فعل في الأدوار الأولى من المدنية الإسلامية»<sup>(4)</sup>.

2- من الإجابات القريبة أيضًا لسؤال الجدوى، هو أن مثل هذا البحث يمكن أن يساهم في تقديم حجةٍ أخرى على استقلال العقل المسلم واستغنائه، فطالما تغذت الدعاية الاستعمارية والتحديثية على دعوى قصور العقل المسلم وافتقاره إلى وصايةٍ وتحديثٍ وافد، استدلالًا بما انتهى إليه حاله في القرون المتأخرة، مع ربط هذه الحالة بالإسلام نفسه.

ومثل هذه الدعاية تجعل البحث والتنقيب حول المحاولات الإصلاحية والتجديدية للعقل المسلم وعلوم الإسلام لها بُعدٌ آخر من الأهمية، وهو تنفيذ هذه الدعوى، وإثبات أن عملية تجديد العلم وإعادة إعمار العقل المسلم هو إجراءٌ داخلي،

(1) «الفكر السامي» للثعالبي (71/1) باختصار.

(2) «مدخل إلى الفقه الإسلامي» جوزيف شاخت (16).

(3) «روح الشريعة الإسلامية» جون شارناي (124).

(4) «دراسات في حضارة الإسلام» هيملتون جب (263) بواسطة «إصلاح الفقيه» د. هيثم الرومي (33).

لا يمكن أن يكون خارجيًا، وأن هذا الإعمار والتجديد قد بدأ بالفعل منذ قرون، ولم يتوقف حتى الآن، وإنما المطلوب فقط هو استكمالها، ومتابعة العمل فيه.

أما التحديث الخارجي فهو في حقيقته أهم أسباب ما دخل على العقل والعلم الإسلامي من ضعف في القديم، فدعوى افتقار علوم الإسلام للوافد الثقافي، الذي كان قديما يونانيًا ثم شرفيًا، والتي أوصلت إلى استقبال هذا الوافد واختلاطه بعلوم الإسلام قد انتهت إلى ما انتهت إليه من ضمور واضمحلال في العقل والعلم.

فإعادة الإعمار مرة أخرى باستعمال وافد آخر، تشتمل في باطنها على هدم وهَرَم، إنما الإصلاح الحقيقي والإعمار يكون بسلوك ما سلكه علماء الإسلام من إعادة بناء العقل والعلم على أسسه الأولى التي قام عليها، من الوحي والعقل الفطري، وعلوم أوائل الإسلام لا أوائل اليونان أو غيرهم.

فيمكن لهذا البحث أن يضيف سطرًا في كتاب الحجج على استقلال العقل المسلم واستغنائه.

ولا يعني هذا بالطبع استغناء الفقه والفقهاء عما يحيط به من علوم وخبرات بشرية، بل الفقيه ينبغي أن يكون أوسع الناس نظرًا، وأكثرهم نهماً إلى معرفة ما يستحدث من علوم تتعلق بعمله، ليوظفها في تجويد نظره وتصويب حكمه على الأمور، كما قال الخطيب البغدادي: «اعلم أن العلوم كلها أبازير الفقه، وليس دون الفقه علم إلا وصاحبه يحتاج إلى دون ما يحتاج إليه الفقيه؛ لأن الفقيه يحتاج أن يتعلق بطرف من معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، وإلى معرفة الجد والهزل، والخلاف والضد، والنفع والضرب، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعروفة منهم»<sup>(1)</sup>.

لكنه يفعل ذلك بأدوات الفقه ومادته، وعلى أسس الوحي وهده مقاصده، لا على أسس وافدة، ومقاصد أرضية، ومبانٍ من الخرص والظن وما تهوى الأنفس.

(1) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (33/2).

والأبازير: التوابل. مختار الصحاح (ب ز ر).

3- غاية أخرى ربما كانت أبعد مما سبق، وتتوقف على قدر من التأمل؛ لأنها أعم وأوسع، أرجو من الله أن يكون هذا البحث مشاركاً فيها، وهي إعادة الوحي إلى مركزيته ومكانته في الفكر والسلوك.

بقدر ما يمكن من الاختصار في أمرٍ يصعب فيه الاختصار، فإن من يلقي النظر على الحقبة الأولى من التاريخ الإسلامي، التي كان المسلمون فيها على درجة من الكمال أو قريب منه، في دينهم وعقولهم وعلومهم وقوتهم وهيبتهم ونشرهم للإسلام وغير ذلك، سيجد أن وقود هذه المرحلة لم يكن شيئاً سوى الوحي، هو نور العلم الذي أضاء الطريق، وروح الإرادة والعزم التي بعثت على تغيير مجرى التاريخ وخرائط الجغرافيا، كما وصفه الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

فلم تكن قد قامت بعدُ حضارةٌ وإعمارٌ بالمعنى الأرضي المادي، ولم تكن بدأت حركة الترجمة، وثورة العلوم الفلسفية والطبيعية في بلاد الإسلام كما حصل في العصر العباسي، ولم تكن ظهرت الجيوش الجرارة والأساطيل البحرية الهائلة كما حصل في العهد العثماني الأول، ومع ذلك كانت القوة الصاعدة في العالم التي لم تقم لها قوة أخرى مهما بلغت هي قوة المسلمين، وكان أسعد الناس بالعبادة والإيمان والحكمة هم المسلمون.

ثم بعد ذلك فتحت الدنيا، وبدأ العمران وثورة الترجمة والعلوم، ولكن تزامن ذلك مع تزحزح الوحي عن موضعه في الفكر ثم السلوك، لحساب المنطق والإلهيات اليونانية، ثم التنسك الشرقي، والتعصب المذهبي، وحينها بدأت الخطى تتراجع والقوى تضعف، والبدعة تظهر على السنة، والغواية تعقب الهداية.

ثم في العهد العثماني وبالرغم مما كان في صدره من قوة وانتصار، لكن لم يتبدل في أثنائه صورة العقل والعلم والتزحزح عن الوحي، فسرّيعاً ما أعقب هذه القوة ضعفٌ وشيبةٌ هذه المرة، وتلاه رقودٌ يشبه الموت، لولا أن سبق في قدر الله ألا موت.

فيتج من هذا كله أن حبل النجاة وسر الحياة للمسلمين في شؤون الدنيا والدين هو الوحي، والاستجابة لله تعالى ورسوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

وأي جهد يرمي لإحياء حضاري أو تثوير علمي أو حضور سياسي دون أن يُمسك بالكتاب وبالعروة الوثقى التي لا انفصام، فهو حتى لو وصل لشيءٍ مضيع للدار الآخرة التي هي خيرٌ وأبقى، وهي الحيوان، لكنه في وقع الحال لن ينال شيئاً مما طلب، بل سينال ضده، بشهادة القرآن الذي حكى عن الأمم السابقة التي حُملت الوحي فلم تحمله، فكتب عليهم الهوان والتهيه، ثم في التاريخ آيات للمتوسمين.

ف«الرسالة ضرورية للعباد لا بُدَّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأى صلاح للعالم إذا عُدِمَ الروح والحياة والنور! والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات، قال الله تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا»<sup>(1)</sup>.

ولذا فإن من الملاحظات التاريخية الألمعية التي تجدها كثيراً عند بعض علماء المسلمين، ومن النادر أن تجدها في البحث التاريخي الحديث، رد النكبات الكبرى في تاريخ المسلمين لأسباب أعم وأعمق من الأسباب الظاهرة، وهي أسباب الغضب والضلالة، والتباعد عن نعمة الهداية.

قال ابن تيمية مثلاً: «وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرقة والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، حتى تجد المنتسب إلى الشافعي يتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة، حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أبي حنيفة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على مذهب هذا أو هذا، وفي المغرب تجد المنتسب إلى مالك يتعصب

(1) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (93/19).

لمذهبه على هذا أو هذا، وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهى الله ورسوله عنه، وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل المتبعين الظن وما تهوى الأنفس المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله مستحقون للذم والعقاب»<sup>(1)</sup>.

وقال ابن القيم: «ما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل؛ فإن محنته إما من المتأولين، وإما أن يسלט عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل»<sup>(2)</sup>. ولهذا نظائر في كلام الشيخين وغيرهما.

والمراد هنا أن من المقاصد الجامعة المشتركة بين مباحث الكتاب وموضوعاته هو الإسهام في إعادة بناء الفقه على أساسه الذي بني عليه أول مرة، وهو الوحي، ونفي ما يعترض ويمنع هذا التأسيس أو إعادة التأسيس، ومن تأمل المقولات والموضوعات النقدية على اختلافها وتنوعها، سيجد أنها تقف على أرض واحدة، في طريق واحد، تجاه الوحي، وإعادة هيئته ومركزيته.

وأرجو من الله تعالى أن يندرج هذا البحث عند الله تعالى أولاً ثم عند كل قارئ ومطالع في قائمة طويلة من الجهود والبحوث التي تدفع العقول والأفئدة تجاه الوحي مرة أخرى، للاستضاءة بنوره والتزود منه بالحياة والروح، والإصلاح وإعادة الإعمار والبناء الديني والسياسي والفكري عليه.

هذه محاولة للإجابة على سؤال الجدوى أدعو الله تعالى أن يكون للبحث نصيب منها، ووصول إليها.

بقي قبل الختام شكرٌ وتنويه.

أما التنويه فهو إلى أن كثيراً من أفكار هذا البحث وبعض مادته، استفيدت أو تشكلت أثناء العمل في بحثٍ سابقٍ عليه، كان في أصله رسالةً علميةً، وهو «الجهود التجديدية في الفقه الإسلامي في القرنين السابع والثامن وأثرها في العمل الفقهي المعاصر»<sup>(3)</sup>.

(1) «مجموع الفتاوى» (254/22).

(2) «إعلام الموقعين» لابن القيم (193/4).

(3) طبع في دار اللؤلؤة، ط. الأولى 2022.

فجهود هؤلاء النقاد ومقولاتهم وموضوعاتهم كانت الأساس الذي تكوّن من خلاله مفهوم التجديد الفقهي الذي بنيت عليه الرسالة، وهو ما كان باعثاً على أفراد هذه الجهود النقدية بالتأريخ، والرصد المستقل في هذا البحث الوليد، ولله الحمد.

أما الشكر فهو لمركز نماء و-د. ياسر المطرفي، ليس فقط للموافقة والإسهام في نشر هذه المادة، ولا لإصداراتهم المنتقاة بعناية التي استعنت ببعضها في هذا البحث وسابقه، لكن يضاف أيضاً -والاعتراف بالحق فضيلة- أنني استفدت من ملاحظاتهم على الرسالة الأم ثم على هذا البحث الوليد، واستعنت بها على تكميل بعض ما فيهما من نقص، فالله أدعو أن يجزيهم خيراً وينفع بهم، منتظراً من نصائح القراء أن تساهم في إكمال بعض آخر من النقص.

وأسأله تعالى اللطيف الودود المتصف بكمال الكرم والجود، الذي يتقبل عدل التمرة بيمينه ويرببها لصاحبها، أن يتقبل هذا العمل وينفع به كاتبه ويثقل به وزنه، ويدني غايته وينمي ثمرته وأسأله سبحانه الذي يحب العفو ويقبل التوب ويعفو عن الإسراف والذنب أن يتجاوز ويعفو عما فيه من نسيان أو زلل أو ضعف أو لكن.

عمرو عفيفي

صبيحة اليوم الخامس من جماد الآخر 1445 من الهجرة الشريفة/18 ديسمبر 2023 م  
اليوم الحادي عشر بعد شهرين من طوفان الأقصى